

إلى ابني الحبيب . . .

هل تسمح لي أن أتحدث إليك قليلاً؟ فقط خمس دقائق.. ولكن من فضلك لا تتلمل، ولا تقرأ كلامي وأنت مشتت. ففي باطني يكمن خلاصك فهل استحق منك الآن بعض التركيز؟ أولاً أريد أن أسألك كيف حالك؟ لا تقل لي أنا بخير فعياني تخترقان أستار الظلام وبهما أرى ما يدور في ذهنك.. وأستطيع تمييز أشلاء كيانات الممزق.. وبملؤني الحزن أمام روحك الراقدة في انكسار.. وأدرك تماماً أن داخل قلبك عدداً لا بأس به من شظايا خبراتك النعيسة..

آه.. كم احبك.. وكم أتمنى لو تصدقني.. إذا قلت لك بأمانة أن عندي حل لكل متاعبك ومشاكلك واحتياجاتك ورجباتك والظاهرة والخفية.. فقط ثق بي.. صدق أقوالي الأمانة.. سلّم بصلاحي نحوك.. آمن بأبني احبك.. وبأبني مُسْغِل بك جداً.. بكل تفاصيل حياتك، واحفظ تاريخ حياتك لحظة بلحظة، ويوم بيوم.. ودائماً أراقبك في تشوّق بعيون ملؤها المحبة والشفقة..

كنت معك حين استيقظت هذا الصباح كما في كل صباح، تفتح عيونك في كسل، تستجمع أقصى قوتك لتنهض من سريرك.. تخرج من حجرتك مُتَرَنِحاً غير مُكْتَرِث بصورتني المعلقة على الحائط وقد علا سطحها الغبار، تمتد يدك بتلقائية إلى التلفزيون، وأحياناً تفضل أن تبدأ يومك بشيء من الأغاني، تزدحم رأسك بالأفكار، وقلبك بالميول، وعقلك بالتصورات، وكياناتك بالسقطات.. وذاتك هي (السكرتير) الخاص الذي يَعدُّك بتدبير كل شيء ويفشل في تنفيذ أي شيء.. تتناول إفطارك في وجوم، ترتدي ملابسك في تراخي، تشتهي أن تكون الآن في الشارع، وما أن تصل إلى هناك حتى تتمنى أن تصبح في الكلية.. وهناك سرعان ما يتسلل الملل إلى قلبك فَتَطُوق الرجوع إلى البيت.. تتناول الغذاء في دهشة صامتة.. وتساؤلات كبيرة في داخلك تود لو تذيبها في أنحاء العالم: ماذا أريد..؟ لماذا أحياناً..؟ لماذا لا تتحقق رغباتي..؟ يبرز صوت سكرتيرك الخاص قائلاً في مكرٌ خائب: " اقترح أن تنام الآن وكل الأمور ستكون على ما يُرام.. "

يستكين جسدك مؤبداً لهذه الفكرة، تدفن تساؤلاتك ورجباتك داخل وسادتك وتغلق عليهم بغطاء دافئ.. تنام كثيراً، وأحلامك ليست اسعد حظاً من واقعتك، تستيقظ بمزيج من اليأس وخيبة الأمل والمرارة. وإذا بالنهار قد مال. " ما رأيك في بعض الترفيه.. " يقولها العقل برتابة معهودة.. كل ما فيك يخضع له، ليس استحساناً ولكن عجزاً عن إيجاد ما هو أفضل.. " هذا الفيلم قد شاهدته أكثر من مائة مرة.. " تقرير عقلي من ذاكرتك التي لم تتخلص من آثار النوم بعد.. يتجاهل ذهنك تلك الحقيقة.. تستلقي أمام التلفزيون وتمتد أصابعك بتلقائية لتلتقط ما تجده في الطبق بجانبك وتلقى به إلى فمك بلا تمييز.. ينشغل كياناتك كالمعتاد بالقصة المستهلكة كما لو كانت جديدة.. ترى ما لا يجب أن يُرى، تسمع ما لا يليق بك، يمتلئ عقلك بالخيالات، وقلبك بالاتجاهات، ونيبتك بالاستعدادات.. انتهى الفيلم.. يتصاعد من قلبك بعض الحزن.. وخيبة الأمل تظهر في رأسك الملقاة إلى الخلف، تتسرب الكتابة إلى القلب الكسير وتحت أقدام جسدك المنهك ترقد روحك الواهنة، وحولها تلتف سلاسل حديدية سوداء مختومة ببعض الكلمات القائمة " لناكل ونشرب لأننا عدداً نموت " تقوم مترنحا، ماذا الآن..؟؟، يا عقل أعني..

اقتراحات المساء: القراءة.. سماع الأغاني، الانشغال بالغد، تبرير أخطاء اليوم، الشعور بالشفقة على الذات، النوم.. تدور عيون ذهنك بين الاختيارات، تنظر إلى كلمة أخيرة وتغمض عينيك عليها مصداقاً، إنها النوم.. تقف بترنحك المعتاد، وتستلقي على السرير.. تنظر إلى السقف في خمول، تتذكر أحداث اليوم في تعاسة.. تساؤلات تبرز: هل خُلِّقت لهذا..؟ هل ثمة من يحبني أو يهتم بي؟ هل يشعر بي أحد..؟ آه اشعر بالجوع في روحي، هناك فراغ كبير داخل كياني.. فراغ عجيب متمتع، كيف املاء؟ أبالخطية؟ أم بفعل كل ما يخطر بذهني..؟ أم بالإدانة..؟ أم بالفلسفة..؟ أم بالعلاقات العاطفية..؟ أم بكراهية الآخرين..؟ أم بالانشغال بالعمل..؟ آه.. آه.. آه.. تمسك رأسك بقوة بعد أن سمعت تقرير ذاكرتك " كل ما قلته لقد جربته لعدة سنوات وبدلاً من أن يمتلئ فراغك ازداد اتساعاً " !!!

آه يا حبيبي، اهدأ، لا تعذب نفسك، التفت إلى، نعم أنا هنا سأساعدك وأرشدك وأسدد خطاك وأصوب أخطائك، سأصلح سمعتك الرديئة، بل سأفعل أهم شيء في حياتك، فلن أملاً فقط فراغ كياناتك، ولكني سأسكن فيه!! حبيبي، فراغ كياناتك على صورتني ولن يقدر أن يملأه أحد أو شيء غيري.. أعلن انك محتاج إليّ.. إنكر حكمتك.. واجحد ذكائك.. واطرد سكرتيرك الخاص من قلبك.. كف عن التفكير.. ولا تهتم بالغد (مت ٦ - ٣٤) فبالرجوع والسكون تخلص.. وبالهدوء والطمأنينة تكون قوتك.. (أش ٣٠ - ١٥) ثق أن قلبي المحب لن يتخلى عنك أبداً بدليل انه لم يتخلى عنك منذ ألفي عام.. أتريد الإثبات..؟؟ ها هو إمضائي بالدم على صليبي.. وهوذا اسمك المحبوب جدا إلى قلبي منقوش على كفي (إشعيا ٤٩ - ١٦) .

يا أغلى ما املك.. لا تتباعد عني لأنك لا تصلح إلا لي ولن تسعد إلا معي.. هل رأيت كيف كنت معك لحظة بلحظة طوال حياتك دون أن تشعر أو حتى تهتم، كنت ومازلت وسأظل مشغولاً بك بغض النظر عن مدى حبك لي لأن لذتي معك (أمثال ٨ - ٣١) لا تبكي بكاء.. أترأف عليك عند صوت صراخك

(إشعيا ٣٠ - ١٩) . تباعد عن الخطية لأنها طرحت كثيرين جرحى (أمثال ٧ - ٢٦) تعالى وارثوى بدون ثمن من نعمتي (إشعيا ٥٥ - ١) .. فأطرح خطاياك في بحر النسيان لأنه ليس اله مثلي غافر الإثم صافح عن الذنب (ميخا ٧ - ١٨ : ١٩) . لن يقدر قيمتك سواي، فأنا من خلقتك وحملت آثامك على ظهري ودفعت ثمن طهارتك على الصليب، وحببت بك في قلبي وتمخضت بمحبتك قبل أن تولد، وولدتك في المعمودية لرجاء أبدي، وبذلت جسدي ودمي لأغذيك، وسكبت روحي لأرويك.

يا ابني اسمعني وانقض ميثاقك مع ذاتك التي فشلت دوما في منحك السعادة، إنها لا تحبك بل تستغلك، إنها الأجير الذي يرى الذئب (إبليس) مقبلا فيتركك فريسة لأنيا به، وهو بدوره لا يأتي إلا ليذبح مواهبك ويهلك فضائلك (يوحنا ١٠ - ١٢ : ١٣) كُن بطلاً وقف مع نفسك بشجاعة .. اعتنق الصدق .. ودع المنطق يتكلم .. ولتسمع صوت ضميرك في صبر .. قف بجسارة معلنا تحرك من محاولات السعادة الفاشلة .. متذكراً إخفاق ذاتك في تدبير حياتك .. وعجز عاطفتك عن إمدادك بالهناء .. وخطأ جسدك في امتلاك كل شيء وعمل كل شيء وممارسة كل شيء .. على حساب روحك التي هي جزء مني . أعلن زيف الحرية الكاذبة التي اعتنقتها وأسبلتها على عينيك بلا تحفظ، وأذنيك بلا ضابط، ولسانك بلا حاكم، فكانت النتيجة تحوّل النور داخلك إلى ظلام وامتلاء عقلك بالخيالات وتَشْبُع ذهنك بالتصورات.

أنا اعلم أن الواقع مرير، وانه لا طاقة لك حتى على الوقوف للصلاة، وان كيائك خرب .. ومُدْمَرٌ .. لا تخف، فسأجسدك بروحي الساكن فيك، فتصير خليفة جديدة، سيصير مرشدا لك يقول لك اقرب فتقرب أو ابتعد فتبتعد. إذا اقتربت مني ستصير مثلي .. جميل .. نقي .. بهي .. طاهر .. مقدس .. إذا عطشت فسأسقيك بدمي وأرويك بروحي وإذا جعت فسأغذيك بجسدي وأطعمك بمن نعمتي .. سأسليمك إلى عروسي التي اقتنيتها بدمي، وأسكنك في كنيسةني وأفرح شبابك في هيكلي (مز ٤٣ - ٤) . سأحوّل روحك المكبلة بأغلال جسدك الشرس إلى عروس فاتنة تحيط بها الملائكة في خشوع .

هيا الآن قف واقرب مني، أغمض عينيك .. واخفض رأسك .. واقرع صدرك .. ومن وسط دموعك ستجد فمك يهتف نادما " لقد تأخرت كثيراً في حبك .. فإن أردت تقدر أن تطهرني .. " آه .. ما أجمل لهجة الندم في كلماتك ورنين الصدق في أقوالك . كم افتقدت تلك الأيام التي وقفت فيها أمامي وناجيتني كأب لك .. كم افتقدت كلامك البسيط ووجهك الخاشع ودموعك الأمانة وصلواتك المفعمة بالإيمان .. هل تذكر آخر مرة فتحت فيها إنجيلك مشتاقاً أن تسمع فيها صوتي؟ هل تذكر آياتك المفضلة، وقصصك المحبوبة، وأوراقك المليئة بالتأملات، وخطوطك الدقيقة تحت كلماتي، وهيامك بمبادئ، ودفاعك عن وصاياي، وصلاتك البسيطة قبل فتح الكتاب " تكلم يا رب لأن عبد سامع " . وذلك الصليب الخشبي في يمينك وأنت متشبث به كما بطوق نجاة، وتلك التسابيح التي كنت تتمتم بها قبل نومك.

ابني الحبيب .. لا تحرمني من صوتك الجميل ووجهك اللطيف (نش ٢ - ١٤) .. إنها ساعة الآن لتستيقظ من النوم فقد تناهى ليل العالم وتقارب نهار الأبدية، فهيا يا بطلي المغوار .. دعني أساعدك في خلع أعمال الظلمة لتلبس أسلحة النور (رو ١٣ - ١١ : ١٢) . دَع العالم يضح واتحد أنت بقيامتي المقدسة .. اقبلني فأعطيك سلطاناً أن تصير ابناً لي (يو ١ - ١٢) . إذا سقطت مجدداً لن تنطح لأنني سأسند يدك (مز ٣٧ - ٢٤) . فقط لا تحوّل عينيك عني .. وإذا أخطأت بضعفك البشري، أسرع إلى لقائي في جلسة اعتراف أمينة فنجدد عهدنا معاً، قل دائماً لأعدائك انه خير لي أن أموت في الجهاد من أن أحيأ في السقوط .. لا تخف من خطاياك فأنا اعلم انك ضعيف، ولا تيأس إذا سقطت بل قم وانفض كل نتائج الخطية السلبية وحاول من جديد ..

فأنت ابني الذي افتخر به أمام السماء والأرض طالما لم تيأس من نفسك ولم تشك في قبولي

لك مهما كانت نجاستك .. فأنا لن أتركك أبداً . لا تخف لأنك قد صرت عزيزاً

في عيني مكرماً وأنا قد أحببتك لا تخف

لأنني معك (إش ٤٣ - ٥) .

أبيك المصلوب

حباً فيك ،،،

يسوع